حجية الحديث :

السنة في مرآة القرآن

لفضيلة الشيخ الجليل محمد اسماعيل السلفي رحمه الله

ورد الحديث والسنة مترادفين ، فقد أطلق اللفظان على قول النبي ﷺ وفعله وتقريره واجتهاده . وأقول النبي ﷺ تستحق الاحترام نفسه الذي تستحقه ذاته ﷺ . وآيات القرآن الكريم تدل على أن هذه المنزلة نفسها حصلت لكل نبي في عصره .

(وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله ـ النساء : ٦٤)

وأنزلت على بعض الأنبياء كتب سماوية خاصة مثل التوراة والانجيل والزبور والقرآن ، وصحف موسى وابراهيم ، وأنزلت على بعضهم الأحاديث فقط ، فهي كانت شريعتهم وأحكامهم . وكان اسماعيل واسحاق ويونس ولوط وهود وغيره عليهم السلام أنبياء من هذا النوع ، فلم ينزل عليهم شئ سوى الأحاديث ، ولمخالفة أحاديثهم هذه نزل العذاب عليهم ، فافتضحوا الى يوم القيامة . ولم يذكر القرآن كتابا خاصا عن هؤلاء الأنبياء ولا ورد عنه شئ في الاحاديث .

وأنزل على النبي ﷺ النوعان من الوحي ، يقول تعالى : (انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعد ـ النساء : ١٦٣) أى أنزل القرآن وكذا الحديث والسنة أيضا .

طرق الوحي المختلفة

قال الله تعالى مبينا طرق الوحي : (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من

وراء حجاب ، أو يرسل رسولا ، فيوحى باذنه ما يشاء) . الشورى : ٥١ .

ويمكن أن مخاطبة الأنبياء السابقين لم تتم بمجموع الطرق الثلاثة هذه ، بل نزل عليهم الوحي بطريق من الطرق ، ولكن ورد التصريح عن النبي ﷺ بقوله تعالى : (وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ـ الشورى :٥٢)

وهذه طرق وحي الحديث الشريف ، أما القرآن الكريم فقد وضح طريق نزوله بقول : (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ـ الشعراء : ١٩٣ ـ ١٩٤)

ومن هنا مست الحاجة الى استنطاق القرآن الكريم لمعرفة أهمية أقوال النبي ﷺ في نظره . ان منزل القرآن لم تخف عليه مشكلات المستقبل وحفظ الرواة وعدالتهم ونقائص الشذوذ والعلة ، بل كان تعالى يعلم تماما أن سلسلة الرواية تورث الشكوك والشبهات والظنون ، ومع ذلك لو قبل القرآن الكريم أهمية أحاديث رسول الله ﷺ لم يبق لنا حق الاعتراض ، بل يدل ذلك على أن القرآن يقبل هذا الفرع من العلم على علامته ، ولا يسعنا انكار ضرورته مع الظنون والشبهات ، ان ذلك جزء من تعليم القرآن ، والنقائص التي تزيد في شبهاتنا ، ونعبر عنها بالشك والظن والوهم ، ليست عيبا في نظر القرآن ، ولذا لا يمكن رد الأحاديث على هذا الأساس . وان كان الحديث مثل التاريخ العام أو حوادث الدهر ولم تكن له أهمية خاصة ، لما أعطاه القرآن الكريم هذه الأهمية ، ولما قال عنه تلك الأقوال الثابتة القوية ، ولما كررها مرة بعد أخرى .

ذكر الأحاديث في القرآن الكريم

نجد ذكر الأحادث في القرآن الكريم على نوعين . الأول أن القرآن ذكر اطاعة الرسول ﷺ مستقلة عن اطاعة الله تعالى . والثاني أنه أورد في آياته ذكر المقاصد التي لا تتم الا بالحديث . ونورد هنا آيات تتضمن ذكر الأحاديث بالنوعين المذكورين .

١ ـ قال تعالى : (وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ـ الحشر :٧) وردت في الآية كلمة آتاكم بازاء نهاكم ، ومقابل النهي هو الأمر ، ولذا يكون معنى آتاكم

أمركم ، أى اعملوا بما يأمركم به الرسول ﷺ بقوة . الأمر يفيد الوجوب ، والنهي يقتضي الحرمة ، أي يجب العمل بما يأمر به الرسول ﷺ ، ويحرم فعل ما ينهى عنه ، فعموم الآية يتضمن وجوب اطاعة الرسول ﷺ . وقوله فخذوه يدل على هذا الوجوب والتأكيد . ولو حملت الآية على تقسيم الغنائم لما تغيرت صورة المسألة ، فان ذلك التقسيم أيضا يكون على أساس أمر الرسول ﷺ ونهيه . والآية منحت خيار التشريع للنبي ﷺ ، فأقواله ﷺ في الوجوب والتحريم قطعية ومحتمة وفرض على الناس ، والعمل واجب بأمر النبي ﷺ ونهيه ، ولا ينتظر شئ آخر ، وهذا هو معنى حجية الحديث عندنا .

٢ ـ قال تعالى : (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع باذن الله ـ النساء : ٦٤) جعلت هذه الآية الاطاعة مقصدا حقيقيا للرسالة ، فان آمن أحد بالرسالة أو الرسول ، ولكنه لا يرى اطاعته والانقياد لأحكامه ضروريا ، فالمؤكد أنه يجهل غاية النبوة ومقصدها ، وجحود غاية الشئ ومقصده يعني جحود ناحيته الافادية وانكار نفعه ، فيا ترى أي شئ نسميه الكفر والفجور بعد ذلك ! وحيث ان الرسول منح هذه المنزلة باذن الله تعالى ، فان انكار هذه المنزلة اعلان حرب مع الله تعالى ، أعاذنا الله من ذلك .

٣ ـ قال تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ـ النساء : ٦٥) في هذه الآية أمور جديرة بالتأمل :

١ ـ ذكر الإختلاف والمشاجرة كأصول موضوعة وكالمسلمات ، وهذا هو النتيجة اللازمة لاختلاف الطبائع ، أي لابد من وقوع الاختلاف .

٢ ـ ثم ان طريقة القضاء عليه رفعه الى النبي ﷺ وحكمه فيه .

٣ ـ لم يسمح بوسائس القلب وخطراته في قبول ذلك الحكم .

٤ ـ علم أن ذلك النزاع وحكم النبي ﷺ فيه كلاهما ما سوى القرآن الكريم . فلو أردنا بالنزاع النزاع حول الأمور الدنيوية ، ويكون حكم الرسول ﷺ فيه مثل حكم الأمير والحاكم ، فان ذلك أيضا لا يضر الحجية ، فان عموم الآية يتضمن النوعين .

أما صفة الرسول فتنقسم ، فانه أمير وحاكم من الناحية الدنيوية ، ورسول من ناحية منزلته الروحية . فان كان جحود حكمه من الناحية الدينوية يؤدى الى نفي الايمان ، فالاختلاف مع منزلته الروحية أو انكار حجيته يقضي على الايمان بطريق أولى ، ولذا فان الآية نص على حجية الحديث ، فأين المفر ؟

٤ ـ قال تعالى : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ـ الأحزاب : ٣٦)

(١) قبول حكم النبي ﷺ شرط للايمان .

(٢) لا يبقى مجال للخيار الذاتي بعد حكم النبي ﷺ .

(٣) فان أصر أحد على خياره ويحاول الحكم وفق رؤيته فانه موعد بالضلال المبين .

(٤) التخلي عن الخيار الذاتي شرط الايمان . وبهذه الآية تتضح حجية قول النبي ﷺ وفعله واجتهاده ، وليس من ذنب أهل الحديث الا انهم لا يرضون بالحط من منزلة الرسول ﷺ . ان حكم كل ذي أمر يعتبر حجة في نطاق تأثيره ، ولكن الرسول ﷺ يحرم هذا الحق الواجب ، لمـــاذا ؟

٥ ـ قال تعالى : (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا ، قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ـ النور : ٦٣)

تدبروا تصريحات هذه الآية :

(١) حكم دعاء الرسول ﷺ يختلف عن حديث الناس العادي (اي تجوز مخالفة الواحد لآخر في الحديث الذي يدور فيما بينهم ، ولكن أمر النبي ﷺ يختلف عن ذلك قطعا) أي لا يسع أحدا رفض حكم النبي ﷺ .

(٢) لا يجوز صرف النظر عن أحكام النبي ﷺ ولو بالحيل والأعذار ، فان ذلك من دأب المنافقين .

(٣) الذي يخالفون عن أمر النبي ﷺ (أي لا يرونها حجة) يستحقون العذاب الأليم . وجملة " يخالفون عن أمره " تتطلب كثيرا من التأمل من المخالفين .

٦ ـ قال تعالى : (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون ـ النور : ٥٦)

(فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله ، والله خبير بما تعملون ـ المجادلة : ١٣)

في هاتين الآيتين فرضت اطاعة الرسول ﷺ مثل الصلاة والزكاة ، ورد في سور النور وسورة الأحزاب وسورة المجادلة ذكر مقام الرسالة واطاعته بكثرة ، وللتأكيد على ذلك جرى تصرف حكيم بديع في أسلوب البيان لا يتمتع بروعته الامن ذاق العربية .

فذكر في سورة النور " الرسول " معرفا ، فالمراد به محمد رسول الله ﷺ فقط . وفي سورة المجادلة ورد ذكر الله والرسول كليهما ، والمعنى واحد ، وأسلوب التعبير لطيف . وفي " رسوله " نسب الرسالة الى نفسه فدل على نسبة الرسول اليه تعالى .

٧ ـ قال تعالى : (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ، ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفور رحيم ـ آل عمران : ٣١)

ان حب الله تعالى مطلوب مسلم به يسعى له الموحد والمشرك ، فبين أن سبيل ذلك هو اتباع الرسول ﷺ فقط ، وهذا لا يدل على حبكم فحسب ، بل يحبكم الله تعالى أيضا ، فتصيرون محبوبين بدل المحبين ، وتغفر لكم ذنوبكم ، فان العفو عن زلات المحبوب نتيجة طبيعية للحب . ان الأسلوب الذي أوجب به اتباع النبي ﷺ حكيم جدا ، لقد من الله تعالى على الواهين بالحب الالهي والمضحين في سبيله باخبارهم عن وصيفة المحبوبية ، ودل متمني العشق على سبيل كونهم معشوقين .

وجميع هذا التكريم مرتبط باتباع النبي ﷺ ، وهذا الفلاح العظيم مضمون بالاطاعة العملية له ﷺ . فالعجب كل العجب من الذين يسدون طريقي المحبة والمحبوبية بانكار حجية

أقوال النبي ﷺ ! (ومن يضلل الله فماله من هاد ـ الرعد : ٣٣)

٨ ـ قال تعالى : (انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيما ـ النساء : ١٠٥)

(١) جعلت علة انزال الكتاب بالحق الحكم النبوي ، فان لم يكن للنبي ﷺ حق الحكم ، ولم يكن قبول هذا الحكم واجبا ، لم تكن حاجة الى انزال الكتاب على النبي ﷺ .

(٢) ان الحكم المذكور في الآية لا يكون بالوحي الناطق ، فان قوله " اراك الله " يوضح أن هذا الحكم يكون بالتفكير والاجتهاد ، ويصدره النبي ﷺ برأيه .

(٣) عهد الى النبي ﷺ أن لا يكون خصيما للخائنين .

فالآية تحسم الأمر ، وذلك بأن ننكر نزول القرآن على النبي ﷺ ، أو نؤمن بأن اجتهادات النبي ﷺ من الله تعالى . ان أقوال النبي ﷺ ليست تراثا تاريخيا فحسب ، بل هي أحكام يجب العمل بها وحقائق ناطقة : (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ـ الكهف : ٢٩)

خديعـــة

امتن بعض منكري السنة كثيرا فقالوا نحن لا ننكر الأحاديث ، بل انها تراث تاريخي ثمين ووثيقة تاريخية مقدسة : (كبرت كلمة تخرج من أفواههم ـ الكهف : ٥) وليس معنى هذا القول بعد فهم منزل النبوة الا انكار النبوة ، بل غاية اهانة للنبي ﷺ ، أعاذنا الله منه . وزخرفة القول هذه لا تعنى الا أن منزلة النبي ﷺ تشبه منزلة ابن خلدون وابن جرير وابن كثير والمؤرخين الآخرين ، فتكون أقل أو أكثر ، ويحق لكل انسان أن ينتقده ، فيكون الرسول هدفا للبحوث التاريخية ، وتدقيق البحث والنظر يحيط بجو النبوة . ان هذه المنزلة لجميع العلمـاء ، بل نشـر ملحدو أوربا تراثا تاريخيا أفضل في سوق العلم وهو يهيئ لأهل النظر مادة فكرية .

فليفكر أصدقاؤنا (ان لم يعدم الحياء من الدنيا) في المنزلة التي يمنحونها النبي ﷺ . هذا كما يقول شخص عن أبيه : اني لست ابنا له ، ولكنه رجل شريف . ان أكثر ملحدي

أوربا يحسبون النبي ﷺ انسانا مقدسا ، ولكنهم لا يرونه نبيا ! وهذه المنزلة أعطاها أهل القرآن الأنبياء عليهم السلام ، فعليهم أن يفكروا بأمانة ما هو الفرق الذي يوجد بين منزلة النبوة ومنزلة العلم العام ؟ (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ـ النور : ٦٣)

الحقيقة أن هؤلاء يملكون نفسية انهزامية ، واعتقادهم في محققي أوربا قد أغفل عن أنظارهم الاسلام وعقائده والأنبياء ومنزلتهم : (فما لهم عن التذكرة معرضين ـ المدثر : ٤٩) فبدل أن يعتزوا بالتراث العلمي الذي ورثته الأمة عن رسولها قرنا بعد قرن ، يرون فيه عارا ، وتندم قلوبهم على الايمان به : (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ـ يونس : ٣٩)

ولعل أجزاء السنة التي تتضمن بعض القصص التاريخية ، تطلق عليها كلمة التاريخ على سبيل التجوز. ولكنها كيف تطلق على الأوامر والنواهي والترغيب والترهيب والزهد والورع والأخلاق والعبادات والأذكار والأدعية ؟ ان منكري الحديث قد أبدوا في هذه المسألة كرما فكريا لا يسمى الا ذهولا علميا ، بل كلامهم في هذا الموضوع انما هو خداع ودجل لا ينبغي لملحد ذو همة وكافر جرئ ومنكر غير مبال ، انه تشم منه رائحة النفاق : (وما تخفى صدورهم أكبر ، قد بينا الآيات لقوم يعقلون ـ آل عمران :١١٨) ان هذه الكلمات لا تصدر الا عن الألسنة التي خلت قلوب أصحابها من حلاوة الايمان . اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه .

٩ ـ قال تعالى : (لا تحرك به لسانك لتعجل به ، ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم ان علينا بيانه ـ القيامة : ١٦)

(١) كان النبي ﷺ يسعى عند نزول الوحي ضبطه حتى لا تنفلت كلمة من الذاكرة ، ولذلك أمره الله تعالى بأن يطمئن من الانفلات ، لأن جمع القرآن واقراءه على الله .

(٢) " ثم ان علينا بيانه " ليس معنى البيان هنا سوى التعبير عن المقاصد ، وهذا يختلف تماما عن الجمع والقراءة . ومقصود الأمرين (الجمع والقراءة) حفظ ألفاظ القرآن .

والمقصود من البيان التعبير عن المعاني التي هي روح الوحي . ولو لم تحفظ المعاني لم ينفع الحفاظ على الألفاظ كثيرا ، وهذا البيان هو الذي قام به النبي ﷺ بقوله وفعله وتقريره . والله تعالى قد تولى بنفسه البيان حيث أتى بحرف التأكيد " ان " ثم قدم قوله " علينا " فالبيان خاص به تعالى . وعلينا الآن أن نتدبر أن البيان الذي تولاه الله تعالى ، وقع أم لا ؟ وحفظ أم لا ؟ والآية تشير الى أن حفظ البيان أيضا مما تولاه الله تعالى .

(٣) فان كانت الظنون والشكوك في الرواة والرواية والأسانيد والرجال تستطيع أن تبطل ذلك البيان ، وتحفظات العلوم الانسانية تفقد الثقة به ، فما هي فائدة الدعوى المؤكدة في قوله (ان علينا بيانـــه) ؟

(٤) ان لم يصدق هذا البيان على الأحاديث المصطلحة ، فأين هو في هذه الدنيا ؟ وعلى كل فانه زائد على وجود القرآن اللفظي .

(٥) ان لم يتم حفظ هذا البيان في الواقع ، وكان التأكيد المذكور تظاهرا دينيا فقط ، فما هي فائدة حفظ الألفاظ اذن ؟ ان حفظ الألفاظ لا يتم به حفظ المعاني والمقاصد .

(٦) ومع ذلك يجب التفكير فيما اذا كان الحفاظ على اللغة أقوى من الحفاظ على الحديث ؟ وهل سلمت لغة القرآن (العربية) من التطورات الى الآن ؟ ان التفكير في النقاط السابقة بالعقل والأمانة يوضح حجية السنة ، وأنها مقتضى القرآن ومقصده .

١٠ ـ قال تعالى : (فانما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا ـ مريم : ٩٧)

أ ـ يحتمل أن يراد باللسان اللغة العربية ، أو أقوال النبي ﷺ التي في صورة السنة والحديث ، والثاني هو الأرجح في رأيي المتواضع ، ولا ينبغي أن نريد به اللغة العربية فقط ، وذلك أن اللسان هنا أضيف الى كاف الخطاب " ك " ، ومن المعلوم أن اللغة العربية يتكلم بها مئات الألوف من الناس ، فما هي فائدة هذا التخصيص والاضافة ؟ ان نزول القرآن باللغة العربية مزية أخرى ذكرها القرآن في مواضع أخرى .

وان أردنا باللسان هنا اللغة العربية ، فان لام التعليل في " لتبشر " تكون مهملة ، فلا

يكون ذلك مزية للنبي ﷺ ، بل يستطيع كل واحد من أهل اللغة أن يفعل ذلك ، وهكذا لا تكون في ترتيب الآية فائدة خاصة .

ب ـ بعد تقييد يسر القرآن وسهولته بلسان النبي ﷺ ذكر أمرين كعلة له :

(١) البشارة لأهل التقوى .

(٢) انذار محبي الجدل والخصومة . ومن المعلوم أن هذا المقصد لا يحصل بتلاوة الألفاظ فقط ، بل يجب له الأفهام والتفهيم والشرح والتوضيح ، ويستوى في ذلك العرب (عارفو اللغة) والعجم كلهم .

فان لم يكن هذا الشرح والتوضيح حجة ، فالحصر بانما وترتب البشارة والانذار عليه يصير دون هدف ، ويتهدم بناء النبوة وغاياتها تماما . ولعل هؤلاء المفكرين (منكري الحديث) لم يقرأوا القرآن قط بتدبر : (أليس منكم رجل رشيد ـ هود : ٧٨)

١١ ـ قال تعالى : (واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول ، قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون ـ المائدة : ١٠٤)

ذكر قوله " الى الرسول " معطوفا ، ومن المعلوم أن المعطوف والمعطوف عليه يستقلان ويتغايران في عامة الأحوال . فحينما نقول : " عندنا فلوس وأرض " فان الفلوس والأرض في هذا المثال لا يكونان شيئا واحدا ، بل شيئان مستقلان منفصلان .

كان الرجل المولوي عبد الله الجكرالوي يريد بالرسول أيضا القرآن ، وهذا في رأيي جهل عظيم وناشئ عن عدم معرفة اللغة العربية ، فان معنى الدعوة الى الرسول هنا ليس الا الدعوة الى سنة الرسول ﷺ ، وهذان أمران مستقلان في الظاهر ، ومنزلتهما سواء (أوتيت القرآن ومثله معه) " الرسول " ركن مستقل للدعوة السماوية ، واذا كانت كل سنة صالحة جديرة بالاتباع ، فلماذا تحرم سنة الرسول ﷺ ذلك ؟ انها تستحق أن تجب اطاعتها أكثر .

١٢ ـ قال تعالى : (ان الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ، ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم

الكافرون حقا ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا ، والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ، وكان الله غفور رحيما ـ النساء : ١٥٠ ـ ١٥٢)

هذه الآية تحكى عن طريقة أهل الكفر وطريقة أهل الايمان ، فأهل الكفر يفرقون بين الله تعالى وبين رسله ، فيؤمنون بالبعض ويكفرون بالبعض ، وهذا هو طريق الكفر . أما أهل الايمان فلا يفرقون بين الله تعالى وبين أنبيائه ، فهؤلاء يستحقون الأجر عند الله ، ولهم رحمة الله ومغفرته .

ان الله ورسوله ينفصلان بالذات والوجود ، ولكنها يتحدان بالنظر الى وجوب الايمان ، والتفريق بينهما كفر ، والايمان بالرسول واجب مثلما يجب الايمان بالله . والآية حكمت بالكفر القطعي على الذين يفرقون في هذا المقام ، فيؤمنون ببعض الأنبياء ، حينما يكفرون بالبعض الآخر ، أو يؤمنون بالله ولكن يكفرون بالرسل .

قال تعالى : (واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا ـ النساء : ٦١)

والتفريق الذي ورد ذكره في الآية السابقة لعله هو فرار أهل الكفر والنفاق من أقوال النبي ﷺ .

ومن علامات أهل الايمان أنهم لا يؤمنون ببعض أقسام الوحي ولا يكفرون بالبعض ، بل يؤمنون بالوحي كليا ، ولا يفرقون بين الايمان بالله وبين الايمان بالرسل .

١٣ ـ قال تعالى : (والنجم اذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحي يوحى ، علمه شديد القوى ـ النجم : ١ ـ ٥)

ذكر هنا عصمة الرسول ﷺ من الضلالة والغواية ، ثم وصف أقواله ﷺ كلها بالوحي وجعلها بعيدة عن هوى النفس .

والظاهر أن كل قول من أقوال النبي ﷺ مطهر من هوى النفس ، ومؤيد بالوحي الالهي ، ولذا يكون حجة شرعية ومقبولا . والحصر في قوله تعالى (ان هو الا وحي يوحى)

يدل على أن الرسول بصفته رسولا لا ينطق الا بالوحي ، ولذا لا يكون ما يتلوه من القرآن بلسانه وما يبينه بالسنة بوصفه رسولا الا وحيا ، أما الأمور العادية والدنيوية فانها ليست تابعة لوصف الرسالة ولذا لا تكون وحيا ، ويمكن أن يتركها النبي ﷺ ، ويصرف النظر عنها بمشورة الصحابة ، ويرجح عليها أفكار الصحابة وآرائهم . وما صدر منه ﷺ من تغيير موضع الحرب في غزوة بدر ، ومن اشارته على بريرة بخصوص مغيث ، وعدم التعرض لها بعد رفض المشورة ، يدل على أن هذه الأمور لم تكن من حيث كونه نبيا .

١٤ ـ قال تعالى : (ألم نشرح لك صدرك ، ووضعناك عنك وزرك ، الذي أنقض ظهرك ، ورفعنالك ذكرك ـ الشرح : ١ ـ ٤)

أثبت في هذه السورة نعما عديدة بصيغة الاستفهام ، وبذلك يظهر أن جميع المعوقات التي قد تكون مظنة الخطأ تزول بعد شرح الصدر ، وحينما توضع جميع الأوزار التي قد توجب الخطأ والمعصية في هذه الدنيا ، فكيف تكون حجية أقوال هذه الشخصية المعصومة المحفوظة المتفرغة في هذه الدنيا للذكر والشكر موضع شبهة لدى المرء المتدين العاقل ؟

وان كانت أقواله موضع بحث ، وأمكن وصفها بالخطأ واسقاطها من الحجية مثل عامة أرباب التاريخ والعلماء ، غير المعصومين ، فما هي صورة رفع ذكره ؟ ان ذكره حينذاك يكون مثل ذكر عامة الناس ، وقوله (ورفعنا لك ذكرك) يصير مجرد وعد لم تظهر له صورة عملية !

والذين أكرمهم الله تعالى بنعمة شرح الصدر من الأمة ، قد أعزهم بقيادة الدنيا أيضا ، وهذه القيادة المقدسة هي التي تضمن الفوز والعلو للدنيا .

انظروا الى الألقاب العامة التي أكرم بها النبي ﷺ ، ثم انظرو إلى الحجة الشاذة التي يقدمها منكرو الحديث على زعمهم بأن أقوال هذا الرسول الأعلم الأعقل ليست حجة للأمة ، كي تدركوا التباين والانفصال بين المنزلتين ، فالله تعالى رفع منزلة النبي ﷺ بالخطاب والكلام ، ومنكرو الحديث يحاولون الانتقاص منه بانكار الأهمية الشرعية لأقوال الرسول

الطاهر المقدس ﷺ ، فأين الثريا من الثرى ، وأين الحضيض الداني من السماوات العلى ؟

١٥ ـ وقال تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الاسلام دينا ـ المائدة : ٣)

ليست لهذه الآية في الظاهر علاقة بحجية الحديث ، فانها تذكر اكمال الدين فقط ، ولكننا اذا رأينا النواحي المختلفة للدين الكامل ، وفكرنا في العبادات والمعاملات والمغازي والسير والشئون الاقتصادية والدولية ، شعرنا بنوع من التطلع الى التفاصيل بعد ادراكنا بأن القرآن الكريم كتاب أصولي وصحيفة قانونية ، فان تم تشكيل لجنة من العلماء لهذه التفاصيل ، أو تم الرجوع الى رجل فطين على تصوره مركز الملة ، فان هذه البيئة غير المعصومة بأسرها تكون حملا للظنون والأوهام والشكوك والمزخرفات وضع على رأس مجنون ركب بعيرا أعمى وسلم اليه زمامه حتى يوزع هذه الأمانة الموهومة برضاه واختياره :

كبهيمة عمياء قاد زمامها أعمى على عوج الطريق الجائر

فان صارت هذه الظنون والأوهام دينا ، فما ذنب خبر الواحد حتى نجعله ساقط الاعتبار ؟ وما جريمة علم الاسناد حتى يتعرض للهجمات المتوالية ؟ ولماذا يهمل الفن المتعارف المعقول مثل علم الرجال وأصول الحديث ، الذي طهر حياة مئات الألوف من الناس ، ونقح فن الرواية والدراية فأرشد العالم الى نقد أصول التاريخ ، وأخرج التاريخ من عصر القصة الأسطوري فجعله فنا منقحا مستندا اليه ؟

فأمامنا الآن طريقان : اما أن نجعل الحديث قانونا عاديا لأسرة أو قرية ، فنغمض العيون عن سعته التي ليس لها حد ، أو نعترف بحجية الحديث .

سعـة الاسلام

ان كان الاسلام للعالم كاله ، وشموله محيط بالكون كله ، وهو حقيقة وليس اسطورة ، ويعتمد على اليقينيات أو المظنونات العلمية المستندة ، فان الفرار من السنة وخدمات فن الحديث غير ممكن لتكميل الدين ، فانه يرشد في العبادات والمعاملات والاقتصاد والسياسة

والحروب والشئون الدولية ، ويكون هذا الارشاد بالوحي ولسان النبوة الذي استسلمت له ألوف المراكز للملة وسوف تخضع هكذا في المستقبل أيضا ، ولن تحصل لمراكز الملة هذه في عالم العقل والشعور درجة الاستشهاد واليقين التي تتمتع بها دفاتر السنة ودواوين الحديث : (فما لهم عن التذكرة معرضين ، كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة ـ المدثر : ٤٩ ـ ٥١)

عجز منكري السنة

لا تزال تتمثل أمامنا الجهود التي بذلت طوال خمس وسبعين سنة لسد الفراغ الذي نشأ في سعة الدين وشموله بسبب انكار الحديث ، والصلاة المسكينة هي التي ظلت في هذه المدة غرضا لعلماء منكري الحديث ، ولكن لم يستطيع أهل التحقيق هؤلاء الى اليوم الحكم في وقت الصلاة وهيئتها وأذكارها ونوافلها وفرائضها وواجباتها وركعاتها وأركانها ! فالذين برزوا منادين بالاتحاد ، متعهدين باجتناب الخلافات ، لا زالوا في صميم الاختلاف ، ولم يستطيعوا بعد الاعتماد على القرآن وحده أن يقضوا عدة ساعات مع الاتفاق .

والشكر لله على أن هؤلاء لم يصلوا الى بقية شئون الأمة المسلمة من الحج والزكاة والصوم والمعاملات والاقتصاد والسياسة . فان كان الدين كاملا ، وكان معنى كماله ما ذكرناه من سعته وشموله ، فلماذا يصرف النظر عن السنة ودفاترها وعن الأحاديث وذخائرها ؟ اننا قد درسنا بحسن النية والتأمل التام تراجم معاني القرآن لمنكري الحديث هؤلاء وحواشيهم وتعبيراتهم ، والله يشهد على أننا لم نجد لديهم شائبة من العلم واليقين .

خلفية انكار الحديث

منشأ انكار الحديث هو الشعور بالنقص ، الذي تحول الى الفرار والتقهقر ، فحينما يسمع هؤلاء اعتراض معارض ، يبدأون الفرار والتهرب ، لأنهم يجهلون القرآن والسنة ومصادرهما الموثوق بها ، وتعجز عقولهم عن توجيههما ، وهذا الفرار يتمثل في صورة انكار النصوص ، والسلاح الذي يستعملونه ضد الأحاديث هو رفضها وجحودها .

وحينما يواجهون هذه المشكلة في القرآن الكريم ، ويرون أن لا يجارى تبحرهم في الجهل ، يلتجئون الى التأويلات التي توهم أن الله تعالى لم يكن يعلم من العربية ما يعلمه هؤلاء المتبحرون في الجهل !

فان قرأتم كتاب تأويل مختلف الحديث في الرد على أعداء أهل الحديث لابن قتيبة ، وكتاب مشكل الآثار للامام الطحاوي ، وكتاب الأحاديث المشكلة للقمى ، وكتاب مشكلة الأحاديث لابن فورك ، لعرفتم أن المبتدعين القدامى لم ينكروا الحديث جهارا ، ولكنهم تعرضوا لعقدة فكرية بسبب بعض الأحاديث وبعض الآيات ، فاختاروا أيضا طريقين ، اما الانكار أو التأويل ، وهذه هي نتيجة الشعور بالنقص الذي نشا بسبب قلة العلم .

ثم الغريب أن يرى هؤلاء مطعنا في بعض الأحاديث ، ولكن النظام يستدل بها ، فحديث تعارض ابراهيم يشرق به كل منكر للحديث ، فلا يستطيع أن يقبله أو يرفضه ، ولكن النظام يستدل به نفسه على جواز الكذب ويجعله أساسا له . وكلامي هذا ان كام مرا فاني أعتذر عنه الى الأصدقاء ، ولكن أمنيتي أن يقرأ كلامي بروية ثم يفكر ، فان الأمة كلها في جانب ، وأنتم القلة القليلة في جانب آخر .

ان معنى حجية سنة الرسول ﷺ واستقلالها عام وواضح في القرآن بحيث يمكن جمع مئات الآيات حول هذا الموضوع ، واني ذكرت هنا بعضها فقط ، كي يحاول طالب العلم التفكير بهذا الطريق ، وسوف أذكر في فرصة قادمة حجية الحديث في ضوء سيرة الرسول ﷺ . ومن العناوين المستقلة أن الرجل الذي تكون سيرته في هذا العلو والرفعة ، هل تكون أقواله وأعماله مثل التاريخ ، وشخصيته مثل المؤرخ ويعتبر كلامه مجرد تراث تاريخي مقدس وثمين ؟ فالرجاء من القراء انتظار ذلك .

الترابط بين القرآن والحديث

ذكرت في القرآن الكريم بعض الآيات بحيث لا يكتمل معنى القرآن بغير الحديث ، وهذا هو نداء القرآن الذي يثبت ضرورة الحديث ، والقرآن الكريم يثبت ضرورة الحديث

باشارة النص . فالرجاء من منكري الحديث أن يتجشموا مشقة التدبر في القرآن من هذه الناحية كطلاب علم ، عسى الله أن يفتح القلوب ، وتسنح لقوة الفهم فرصة الاستفادة .

١ ـ قال الله تعالى : (ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض ، منها أربعة حرام . ـ التوبة : ٣٦)

ورد ذكر هذه الشهور الأربعة في القرآن بالاجمال ، وقد منع فيها من القتال والجدال ، وكذلك منع من بدء الحرب فيها ، ولكن القرآن لم يذكر أسماء الشهور الاثنى عشر ، ولا فصل ذكر الشهور الأربعة ، بل يوجد هذا الذكر في الأحاديث أو في تاريخ العرب ، فلا نعلم عن أهل القرآن أي ذخيرة مقدسة يختارونها ؟

٢ ـ وقال تعالى : (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله ، والله عزيز حكيم ـ المائدة : ٣٨)

ان كلمة اليد تطلق في اللغة العربية من الظفر الى الكتف ، والقرآن أمر بقطع اليد ، ولكن لم يبين حد ذلك ، وبالتواتر العملي يثبت أن يد السارق تقطع من الرسغ، وهذا التحديد مبنى على السنة ، فان تم انكار السنة لزم قطع اليد من الابط ، أو البحث عن حد شرعي يستند اليه . وهذا نداء من القرآن للسنة ، فمعنى القرآن غير واضح للعمل بدون توضيح السنة ، وهذا دليل على أن السنة حجة .

٣ ـ وقال تعالى : (اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق ، وامسحوا برؤسكم وأرجلكم الى الكعبين ، وان كنتم جنبا فاطهروا ، وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ـ المائدة : ٦)

وهذه الآية توضح الوضوء والتيمم ، وكان الوضوء موجودا قبل ذلك ، فرضت الصلاة في السنة الثانية عشرة من النبوة ، فتم تعليم الوضوء حينذاك ، فكان النبي ﷺ

يؤدي الصلاة في ضوء هذا التوجيه مدة ثماني سنوات ، وكانت الصلاة بالوضوء ، وبعد ثماني سنوات نزلت سورة المائدة في السنة السادسة من الهجرة ، فذكر فيها ترتيب الوضوء وتم تأييد العمل الذي استمر ثماني سنوات ، فالعمل الذي وقع طوال السنوات الثماني كان مبنيا على السنة ، وبعد هذه المدة أيده القرآن ، فان لم يكن الحديث حجة فلماذا كان الوضوء ؟ ويمكن أن ترجح الصلاة بغير الوضوء دعما لمذهب منكري الحديث ولكن العمل يعارضه .

وفي الجزء الثاني للآية تعليم التيمم ، فذكر فيها اليد ولكن لم يذكر الحد بأن يراد الى الرسغ أو المرفقين أو الابط . فأي توضيح يقبل يكون مبنيا على السنة ، فالقرآن ساكت عنه ، والقرآن نفسه ينبه على أن الصورة العملية لهذه الأحكام تعلم بعمل النبي ﷺ ، وهذه دعوة اضطرارية لحجية السنة .

والفصل بين نزول الآية وفرضية الوضوء بالسنوات الثماني ذكره المتقدمون من العلماء أيضا ، وينظر لذلك مفتاح السعادة ، والاتقان في علوم القرآن . وقد ورد في أبجد العلوم للنواب ، وكشف الظنون للجلبي .

" ومثال الثاني آية الوضوء ، انها مدنية اجماعا ، وفرضه كان بمكة مع فرض الصلاة . وكآية الجمعة ، فانها مدنية ، والجمعة فرضت بمكة ، قيل ، والحكمة في ذلك تأكيد الحكم السابق بالآية (أبجد العلوم للنواب صديق حسن ٢ / ٦٣٧)

٤ ـ وقال تعالى : (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ـ النور : ٥٦)

تكرر حكم الصلاة والزكاة في القرآن مرات ، ولكن لم يوجد فيه التفصيل عن تعيين أوقاتها وركعاتها ووظائفها وأورادها ، هذا عن الصلاة ، وكذلك الحال عن الزكاة ، فانه لم يرد في القرآن تحديد النصاب في الأشياء المختلفة التي تجب فيها الزكاة ولا تعيين المقادير . والذين حاولوا تحديد هذه الأشياء بالاستغناء عن السنة ، فشلوا فشلا ذريعا ، ولذا فان القرآن نفسه يطالب بحجية الحديث .

الى أهل القرآن

أقول بأدب : ان نظرنا الى الاسلام وتعاليمه فان ذلك يحتم علينا القول بحجية السنة والاعتراف بالأحاديث . وقد احتلت هذه الأحاديث بين تعليم الاسلام منزلة الجزء الذي يؤدي انكاره الى الخلل في حقيقة الايمان . فليس هناك فرق بين انكار النبوة وبين انكار كلمات النبوة . ان الايمان لا يكون بجسد الرسول ، بل بأقواله وكلماته . والذي يقتضيه الايمان والأمانة هو أنه ليس ههنا مكان لمنكري السنة ولانكار الحديث . وتربية الأفكار التي تقوم بها مجلة " طلوع اسلام " وغيرها من المجلات اللادينية ، ليست تربية اسلامية قط ، بل النظر الى الحرية التي يدعون اليها يخيل الينا أنهم ليس لهم مكان في الكفر المنضبط المنسق . ان اليهودية والنصرانية كفر ، ولكن الانسان لا يستطيع الانتساب اليهما بعد نقض تعاليمهما . والوثنية أيضا قانون ولها حدود ، والمرء المتحرر لا يستطيع البقاء فيها الا اذا قبل الالتزام بها .

وفيما أعلم أن هؤلاء المتحررين مكانهم في الاباحية أو في متسعات الاشتراكية ، أما الديانة المنضبطة (كفرا كانت أو اسلاما) فالظاهر أن هؤلاء الأصدقاء ليس لهم فيها مكان .

ترجمه من الأردية

(د . مقتدى حسن محمد ياسين الأهري)

ملحوظة : نشر هذا المقال ضمن كتاب " حجية حديث "

من لاهور بباكستان عام ١٤١٠ هـ = ١٩٨١ م .

♦♦♦